جبرا إبراهيم جبرا

من كاريزما الإبداع إلى تراجيديا النهايات

أ.د. علي جعفر العلّاق– لندن

الفقير الأرستقراطي:

كان جبرا إبراهيم جبرا سليل عائلة أرستقراطية! هكذا كنت أتصوّره في بداياتي الأولى، إذ لا شيء، في الشطر العراقيّ من حياته أو كتاباته أيضاً، يوحي بغير ذلك. وسامته، أناقته، مواهبه المتعددة، شخصياته الروائية التي تنتمي كلّها تقريباً إلى النخب الاجتماعية، لغته الإنجليزية الرفيعة، زواجه من فتاة عراقية برجوازية النشأة، مكتبه الفاره الأنيق في شركة نفط العراق. المجتمعات المرموقة التي تماهى معها حتى صار جزءاً منها. كلّ ذلك كان، في تصوري في تلك البدايات، من مكونات السلوك الأرستقراطي الرفيع الذي لا يكتمل إلاّ بها، والذي كان يتوفر، بغزارة، في السجل الأدبي والاجتماعي من حياة جبرا.

وربما ساعد على شيوع تلك الصورة، لدى الكثير من العراقيين، أنّ عالم جبرا الإنساني والأدبي يشكّل النقيض التام، تقريباً، للصورة النمطية للمبدع العراقي، الذي هو، في الغالب، ابن البيئات الشعبية والحياة البعيدة عن مظاهر الثراء، بل والمتّسمة بالضّنك الماديّ والعاطفيّ في أحيان كثيرة..!

وبعد أن تعرّفنا على طفولة جبرا وصباه في "البئر الأولى"، وهو الجزء الأول من سيرته الذاتية، تبيّن أن ذلك التصور لم يكن دقيقاً ولم يكن منصفاً أيضاً. وإذا استثنينا الجهل بحياة جبرا، فإن وراء صورته التي ترسّخت في مخيلة الكثيرين، جهوداً ونوايا لم تكن من صميم الإبداع. بل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

كانت تمتّ بصلة متينة لتوجهات يسارية وقومية في الغالب، وكان يعوزها الكثير من التحضر وفضيلة احترام الآخر المختلف، والإقرار بتميزه الذي لم يكن هبةً من أحد.

كان من عائلة فقيرة فقراً حاداً، ولم يكن له غير أب يكدح ويشقى من أجل عائلته، وليس له إلاّ طفولة ممهورة بالذكاء والعوز والموهبة الثاقبة. الفتى الذي عاش طفولته المعدمة في بيت لحم، صار "ذلك المثقف الأرستقراطيّ الذي يحلو له، كما يقول إلياس خوري "أن يمضغ الغليون وهو يتكلم الإنكليزية بلهجة أهلها." القدس20-4-2010.

وكثيراً ما كنت، في تلك البدايات، أرى صوره في الصحافة والمجلات فتبهرني تلك الطلعة الساحرة المهيبة، التي تذكرني بمهابة العباقرة الكبار: عينان متأمّلتان وملامح شديدة الرهافة، وغليون لا يفارق يده أو شفتيه. صورة ربما تمنيت أن أكونها ذات يوم، وربماً تمّناها الكثيرون من أبناء جيلي أيضاً. كنت أحلم، في تلك السنّ المبكرة، برؤية جبرا أو الحديث إليه، رغم أنّ ما قرأته له، آنذاك، لا يتجاوز بعض الدراسات أو القصص القصيرة، أو المقابلات الصحفية. وطالما فُتنت بلغته في نقده ورواياته وترجماته، فقد كانت لغة حارّة، متوترة، دائماً.

جبرا خارج نصوصه:

لم يكن دور جبرا، خارج نصوصه، أقل تأثيراً منه داخل تلك النصوص، وقد كان هذا شأنه منذ إقامته في بغداد عام 1948، واندماجه في حياتها الحافلة بالقلق والتحولات الكبرى. وهكذا ساهم في إغناء تلك الحياة والاغتناء بها أيضا حين شكّل مع بدر شاكر السياب، وبلند الحيدري، وجواد سليم، ونجيب المانع، وحسين مردان وآخرين طليعة التجديد في الشعر والرسم ووعي الحداثة.

لاحقاً،كان مكتب جبرا في شركة نفط العراق، ومجلة "العاملون في النفط" التي كانت تصدر عن دائرته مفتوحين للأدباء الشباب الذين لم يجدوا، في المجلات الأخرى، متسعاً لنزعتهم التجريبية وحلمهم في التجديد. وكان من أبرز تلك الأسماء: سركون بولص، فاضل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

العزاوي، عبد الرحمن الربيعي، خالد الحلي، صلاح فائق، فوزي كريم، خالد علي مصطفى، حميد سعيد، وآخرون من أدباء الستينات وشعرائها.

لم تكن لتلك المجلة صلة كبيرة باسمها المهني، إذ لم يخصّص منها إلا صفحاتها الأخيرة، أو ضواحيها المهملة، لشؤون العاملين في تلك الشركة العملاقة وأخبارهم، أما المجلّة كلّها، بورقها الفني الصقيل وإخراجها المميز، فكانت أدبية أو ثقافية على الأقل. وكانت مفتوحة على التجديد بشجاعة تثير الإعجاب حقاً، لذلك يمكن القول إن أكثرنا قد عرف النشر، لأول مرة ربما، على صفحات مجلة "العاملون في النفط". وربما أمكنني القول إن هذه المجلة قد لحق بها الكثير من الحيف، حين ظلت خارج المتن النقديّ ولم يُكتبْ عن دورها في الاهتمام بالأصوات الأدبية الجديدة في وقت تمّ فيه دراسة مجلات أخرى ضمن رسائل جامعية؛ كمجلة عمان الأردنية ومجلة الأقلام العراقية على سبيل المثال، وقد يرجع السبب في ذلك الحيف،كلياً أو جزئياً،إلى ارتباط هذه المجلة بجبرا إبراهيم جبرا، فكيف يمكن النظر إلى دورها بنزاهة، أدبية أو فكرية،وقد صار الموقفُ منها، تقريباً،جزءاً من الموقف منه.

كنّا نتردّد على مجلة "العاملون في النفط" مفتونين بعذوبة ذلك المبدع الكبير: جبرا إبراهيم جبرا، الذي كان يحيط قصائدنا الجديدة، وأرواحنا الملتهبة بعنايته ومحبته الفياضتين، وكان يؤجج أخيلتنا دائما بحديثه اللبق العميق، وشخصيته الحميمة.

إضافةً إلى ذلك فقد أرسى جبرا، وفي فترة مبكرة، تقاليد لم تكن صحافتنا الأدبية على عهد بها آنذاك: العناية بالنصوص الواردة إلى المجلة طباعة وإخراجاً، والردّ على أصحابها بريديا. والأهمّ من ذلك، بالنسبة لشباب تلك الأيام ربما، إن المجلة كانت رائدة في مكافأة كتابها على ما ينشرون فيها. لم تكن المجلة، آنذاك تكتفي بنشر قصائدنا الجديدة فقط، بل كانت تدفع لنا ثمن تأوهاتنا أيضاً، كما يقول سارتر.

ما زلت أذكر أن هذه المجلة نشرت لي أولى قصائدي. كانت قصيدة عمودية، ومع ذلك فقد كانت تحمل شيئا مختلفا أثار انتباه جبرا إبراهيم جبرا، ودفعه إلى السؤال عن كاتب تلك القصيدة. وحين شاهد المجلة صديق لي، وكان يشرف على الصفحة الأدبية في إحدى الجرائد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

اليومية، طلب مني إجراء حوار مع جبرا، وقد نشر الحوار في تلك الجريدة فعلاً، ثم أعدت نشره، بعد ذلك، في مجلة "الأديب" البيروتية. لقد كان اللقاء بكاتب مثل جبرا حلماً بالنسبة لي، أنا الطالب الذي انتقل توّا إلى المرحلة الإعدادية من دراسته.

أذكر يومها، وقبل موعدي مع جبرا بساعات، أنني تعرضت لحادث لم يكن في الحسبان، فقد سقطت من دراجتي الهوائية واخترق قدمي مسمار قديم، يا إلهي! أفي يوم كهذا، تُلطّخ ذاكرتي بالدم، وصدأ المسامير، ورائحة اليود؟ ومع ذلك غادرت العيادة الطبية مباشرة إلى مكتب الأستاذ جبرا بعينين ملهوفتين وقدم ملفوفة بالشاش، وحين أعلمه سكرتيره بوصولي خرج من غرفته مرحباً. ذهل لمنظري، وذهلت لحفاوته وهو يستقبل شاعراً شاباً لم تُنشر له غير قصيدة واحدة.

مع جبرا في قاعات الدرس:

يوفّر إبداع جبرا مستويات عديدة للتلقي، وتشكّل ثقافته العميقة عنصراً معيقاً لأي استقبال سطحي، أو متسرّع لأعماله؛ فهو من الكتاب القلائل الذين لا تتم قراءتهم قراءة حقّة إلا بالوعي والثقافة: الوعي بتقنيات الأداء، والثقافة الرصينة. لم يكن جبرا من الكتاب الذين يفرغ منهم الناقد أو الأكاديمي في قراءة واحدة لثراء كتاباته وتنوعها، واتساع مدياتها المكانية والزمانية التي تتحرك فيها، وروح الابتكار والتجديد التي تتجلى في الكثير من رواياته لغة وحبكة وشخصيات...

وحين توليتُ العمل في مجلة "الأقلام" كان جبرا إبراهيم جبرا، الناقد والمبدع والإنسان، موضع اهتمام كبير في ما كنّا نخطط له من أعداد خاصة وملفات ومحاور. ثم توطدت علاقتي بإبداعه مذ غادرت العراق بداية تسعينات القرن الماضي، للعمل في جامعة صنعاء، ثم جامعة الإمارات بعد ذلك.

كان حضوره يبهر الطالبات ويستفزّ فيهن شبابهن الحالم بمفترقات الطرق وخيالهن الذاهب إلى المجهول. كانت الطرق تتكاثر وتتصادم وتتفرع، غير أن كثرتها، مثل انعدامها، يبعث على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

الحيرة أحياناً. كما أنها لا تحتاج إلى قدمين حرتين فقط، أو جسد يمور بالشباب والشراسة. لأنّ حاجتها أشدّ إلى ما هو أهمّ من ذلك: المخيّلة والشغف. وكان جبرا من أكثر كتّابنا قدرة على إثارة المخيلة والافتتان في نفس من يقرأ كتاباته.

كنت ألمس إقبالاً منقطع النظير من طلبتي على نصوص جبرا إبراهيم اجبرا، مثل روايته "السفينة" أو سيرته المدهشة في "شارع الأميرات" وفي "البئر الأولى". وللحقيقة فإنني، شخصياً، كنت أجد شغفاً خاصاً بقراءة نصوصه، ورغبة في تدريسها، فقد كان أدبه إطلالة على مساحات شاسعة مما يمكن الحديث عنه، وتحليله. كما أنه نداءات، وسفر دائم، واكتشاف للكثير من المجاهيل.

وكنت أحاول دائماً، بالنسبة للكاتب الذي أقوم بتدريسه، أن أجد نقطة إثارة سردية جمعتني به أو بكتاب له، ذات يوم. أن أكسر وهم الكاتب المبثوث بين غلافين، الكاتب المصنوع من ورق محض. أحياناً أتحرك إزاءه من صدفة نادرة جمعتنا، من مشادة على صفحات إحدى المجلات. من أمسية مشتركة. وما أكثر النقاط التي جمعتني بجبرا، منذ سنوات البدايات الأولى.

جبرا والنقد السيري:

كنت أجد في النقد الذي يكتبه جبرا متعة رفيعة. كان يستدرج النص إلى داخله. ويتشرّبه بعمق وعلى مهل. وجدت في نقده الكثير من حميمية النبرة الذاتية، وتدفّقها النشط الحار. وكان لا يترك بينه وبين النص، موضوع الدراسة، فسحة موضوعية بوهم الأكاديمية المشكوك فيها. لم أكن قد وجدت، في تلك الفترة، نقداً يضارعه في توتر اللغة، وجسديتها، وما تضج به من نسغ ذاتي يتدفق من تجربة جبرا المتنوعة، فهو نقد عارفٌ، ودنيويٌّ، ومشوبٌ بالكثير من ثقافته الموسوعية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

كانت لغته، رغم انتمائها الحار للحداثة، تتمتع برصانة كلاسيكية شديدة الحيوية، والنقاء، ومتانة العبارة. كان من أكثر نقاد الحداثة صلة بروح التراث الثاقبة، وكان أشدّهم انغماراً في المنجز الحداثي واستيعاباً له.

خصلتان مهمّتان كانتا تميزان نقده الأدبي: حميميته من جهة، وبعده عن الشكليات من جهة أخرى. خاصيتان أخلاقيتان دون شك، وقد تبدو هاتان الخصلتان متباعدتين أو على تضاد تام. لكن المتابع لما كتبه جبرا من نقد سيجدهما خصلتين متلاحمتين وتجسدان معاً تصور جبرا للإبداع.

لم تكن حميمية جبرا إلاّ عنصراً رصيناً من شخصيته الإنسانية والثقافية، فهو لا يكتب عن عمل أدبي لا يحبه. مسكون بمحبة الجمال وصنّاعه. لم يكن صياد هفواتٍ في مياه اللغات العكرة. ولم تكن هذه المحبة مشوبة برافد يأتيها من خارج النصوص التي يكتب عنها، صداقة مثلاً أو انتماء لاتجاه أدبي في الشعر أو الرواية.

أذكر أنّ جبرا قد كتب ذات يوم دراسة مهمة وطويلة في واحد من كتبه النقدية. وكان عنوانها كما أذكر (تناقضات أدونيس في ديوان "المسرح والمرايا") دراسة عميقة ومستفيضة. وفي معرض حديثي مع جبرا عن تلك الدراسة قال إن أدونيس لم يكن راضياً عنها، مع أنهما، جبرا و أدونيس، كليهما كانا في الصميم من تيار الحداثة الشعرية وكان جبرا من كتاب مجلة "شعر" والداعين إلى ما يتناغم مع مفهومها للشعر ووظيفته الحضارية والجمالية.

وإذا كان جبرا من أكثر نقاد الحداثة الشعرية العربية بروزاً فإنّه أشدّهم اتزاناً في فهم هذه الحداثة وفحص تجلياتها ومساراتها. الحداثة، في تصوره، ليست عبثاً وليست هدماً للغة وفتكاً بكل ضوابطها وسننها التي تجعل العمل الشعري ذا قيمة جمالية واجتماعية.

يمكنني القول إنّ من يطّلع على كتبه النقدية سيدرك، دون عناء كبير، أنّ جبرا إبراهيم جبرا كلاسيكيّ النقد الجديد وجديد النقد الأكاديميّ، مزيج من صفاء الرؤية وتفتحها على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

الابتكار من جانب ودقة المفهوم وسلامته من جانب آخر. وكأنه، بذلك، وريث العمالقة الكبار من نقاد الأدب الإنجليزي: إليوت، ريشاردز، إمبسون، ليفز، هيوم، الدوس هكسلي.

كنتُ مشدوداً إلى نقده، وكانت تأسرني في كتابته النقدية تلك اللغة الفوّارة، البارعة، فهو لا يكتب بلغة أكاديمية مثقلة بالهوامش، وبطيئة الإيقاع، بل يكتب بلغة فيها ما في الإبداع من توتر، وامتلاء.

وكثيراً ما أجد نقده مشوباً بنبره ذاتية محببة، فهو لا يفصل بين فعل القراءة وعملية الكتابة عنها. إن خيطاً من الضّوء يكمن لي دائما هناك، يمتدّ من ذاته المنفعلة بما تقرأ، والمتفاعلة مع ما تقرأ إلى صميم العملية النقدية، وبذلك فإنّ نقده لا يسقط في برودة البحوث الأكاديمية أو حياديتها المتوهمة.

والنقد لدى جبرا إبراهيم جبرا، كما يتضح من كتاباته، صنوٌ للإبداع؛ فلغته النقدية عامرة بضروب المراوغة الخلاقة الصاعدة من مخيلة خصبة وعقل بالغ الثراء. وقد شدّني إلى لغته النقدية، كما قلت، ما كان يخالطها من نبرة الذات، وقوة الشخصية، والتفاتٍ إلى سرديات من حياته العريضة الثرية. وليس بعيداً عن الدقة إذا قلت إنه كان رائداً من رواد النقد السيرذاتي في أدبنا الحديث.

جبرا وإغراءات الترجمة:

تتكشّف ترجمات جبرا عن حقيقتين كبيرتين، أولاهما تنوع اهتماماته وغناها، وثانيتهما معياره في الترجمة. كلّ كتاب قام جبرا بترجمته كان يحمل بين طياته إغراءً ما. في أحد حواراته تحدث جبرا عن معاييره التي يعتمدها في اختيار ما يترجم من كتب نقدية أو روايات. ثلاثة مقاييس، إن لم تخني الذاكرة، كان يعتمدها في عمله الترجمي: مقاييس لا تدلّ إلاّ على عمق موهبته وتحضّر نفسه:

لا يغريه إلاّ الكتاب الذي يتمنّى لو كان قد كتبه هو. هذا كان معياره الأول. صلة لم يصرح بها أحد من المترجمين قبله، مع أنها كامنة ربما في أعماق الكثيرين من المتميزين منهم. وكأنها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

هاجسٌ يؤرقه، وحلم يملك عليه حياته كلها. الكتاب الذي يترجمه جبرا هو كتابه الممكن، الكتاب الذي أخذته الصدفة إلى غيره، لكن قدر الترجمة أعاده إليه مترجماً، يرقى إلى مستوى الشريك الأصيل في التأليف. وبذلك تكون الترجمة هنا فعلاً إبداعياً، ومشاركة في صنع لحظة جمالية استثنائية، كان يجب أن تكون كلها، لولا صدفة ما، من صنع جبرا إبراهيم جبرا.

أما المعيار الثاني الذي يضعه جبرا لجدارة كتاب ما بالترجمة، فهو لا يقل إبهاراً عن سابقه:

أن يكون الكتاب مما يعزز من قيم الجمال والحرية، التي كان يدعو إليها جبرا نفسه.لقد كان أدبه كأدب الكبار دائماً، تجلياً لروحه الحرة وإيمانه بالإنسان وحقه في الحياة والجمال والحرية. لذلك فإن الكتاب الذي يحتفي بهذه القيم ويعزّز من حلم البشر بالحرية هو الكتاب الذي يصغي إليه جبرا بعمق، وهنا نلتقي ثانية بجبرا الشريك، لا في تأليف الكتاب أو تشييد عمارته النصية بل في ما يسبق ذلك، في الحلم والرؤيا التي اختمر الكتاب في إطارها المعرفي والإنساني والحضاري. وهكذا فإن الترجمة ليست حرفة بالنسبة لجبرا إبراهيم جبرا، بل تفاعل حضاري مع الآخر، وهي حوار جمالي مع منجزه الروحي والخيالي. هو لا يقابل، كمن يمتهن الترجمة، بين لغتين، لا يتصيّد الكلمات كجامعي حصى الشطآن، وهو ليس عبداً للقواميس كبعض من يعتاشون على الترجمة أومنها. الفعل الترجمي عنده سفر روحي لا يمرّ بالكلمات أولاً، بل يكون قبل ذلك قد تشبّع حدّ الاختمار بثقافة اللغة الأصل.

وفي الوقت الذي يقوم ممتهن الترجمة بمهمة الآلة الجاهزة للعمل في كلّ لحظة وكلّ كتاب، يقف جبرا أمام العمل الذي يختاره للترجمة برهبة المفتون بالعمل والذاهب إليه بضغوطات عدّة، نفسية وجمالية وحضارية، فالترجمة الاحترافية ليست من اهتمامات جبرا. ليس كل ما يقع بين يديه مثيراً لمخيلته، صيّاد الطرائد العصيّة. الكتاب الذي يترجمه جبرا نداء معرفي وإغراء جمالي لا نستطيع مقاومته. لا غنى لنا عنه. وهذا يفسّر الإقبال على ترجماته. حتى صار راسخاً في العقل الثقافي العراقي والعربي أن عملاً يترجمه جبرا سيلبّي أفقاً عريضاً من التوقعات.

في المعيار الثالث من معايير الترجمة عند جبرا، يستيقظ المبدع في جبرا بأنانيته البيضاء وثرائه المعرفي الوفير التي يضعه في خدمة إبداعه. كان يرى في الترجمة، فاتحاً لحُبْسة الإبداع ومعيناً عليه

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

حين تستعصي أقفاله على الفتح. العمل الإبداعي الكبير يستدعي نظائره، فلكي ينتقل العمل على يدي جبرا من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف لا بد أن يمتلك،كما يبدو، تلك الخاصية الذهبية، أن يكون رافدا للإبداع وخالقاً لأجوائه ومزاجه. وبذلك فإن هذه الشروط الثلاثة، هي برهان جبرا الدائم على انحيازه الواعي إلى خياراته الإبداعية والثقافية والحضارية، وتوفير ما يشدّها إلى بعضها ويجعل منها وحدة لا تقبل الانفصال أو التشتت.

كلّ كتاب مترجم جديد لجبرا، كان يحرّك الحياة الثقافية، ويثير الجدل حول ما هو جوهري في الفكر والإبداع، فهو لم يترجم، في الغالب، إلا ما كان مقلقاً، أو مثيراً للأسئلة باستمرار.

جبرا، لميعة، بغداد:

أذكر جيداً كيف كانت الطالبات يتابعن محاضراتي عن جبرا. كان عددهن، في جامعة الإمارات، يفوق عدد الطلاب بشكل كبير، وحين ظلّ عددهم يتناقص تم إغلاق الشعبة الخاصة بهم. كنت أدرس بعض الفصول من سيرته الذاتية الشيّقة "شارع الأميرات" وخاصة فصل (لميعة والسنة العجائبية)، وهي السنة التي تعرّف فيها على هذه الفتاة العراقية الفاتنة ذات الجذور الأرستقراطية الرفيعة، والتي غدت زوجته لاحقاً وأمّ ولديه.

وكانت الطالبات يندمجن في تفاصيل هذا الحب الذي تألّق جبرا في روايته، فقد كان عجائبياً حقاً، جمع بين جبرا ولميعة، وسما بهما على الاعتبارات الدينية والطائفية والاجتماعية والقطرية. لم يكن في وسع الطالبات أن يتصوّرن حباً كهذا، يتجاوز كلّ ما يمكن أن يكون عقبة مدمرة لتلك العلاقة الرفيعة بينه وبين لميعة العسكري.

كنت أحسّ بقاعة الدرس وكأنها تفوح برائحة التفاح العراقي الأبيض الصغير الذي يهيم به جبرا حباً، وبمفردات اللهجة العراقية التي صار جبرا يتحدثها بشغف وطلاقة. حتى صارت الطالبات يعرفْنَ من تفاصيل حياة جبرا وعاداته وصداقاته ومغامراته ما لم يعرفنه عن أيّ كاتب عربي آخر. وكان مهر لميعة، مثلاً، مثار عجبهنَّ، ولهنّ الحق في ذلك العجب الجميل، فقد ولدْنَ وعشْنَ في حاضنة اجتماعية مختلفة إلى حد كبير.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

كان مقدّم الصداق، ديناراً عراقياً واحداً، وكان المؤخر مثله تماماً. ثلاثة دولارات أو أكثر قليلاً من ذلك. حين سألها القاضي الذي عقد قرانهما. هل تسلّمت مؤخرَ الصداق؟ بدت كلمة "نعم" التي قالتها لميعة، وكأنها قصيدة تعادل حياة كاملة. تلك الأميرة العراقية، ذات المنشأ الرفيع، اجتماعياً وسياسياً صنعت مع جبرا قصة حب أسطورية. آمنت بموهبته وساندته حتى اللحظة الأخيرة من حياتها. ومن المواقف الإنسانية الهائلة موقفها معه بعد أن أنهت الجامعة عقد عمله وقرر أن يهاجر لينضم إلى آلاف الفلسطينيين في المنافي. عبارة لا تقولها اللغة، بل ينبض بها القلب الذي طهرته المحبة وسمت به روح التضحية النادرة: منذ هذه اللحظة سيضاف إلى اللاجئين الفلسطينيين لاجئٌ آخر. ويبدو لي أن هذه السيدة الراقية لم تزاحم جبرا على واجهة المشهد الأدبي والاجتماعي التي كان يحتلّه بجدارة، بل رضيت رضا المحبة المؤمنة بمن تحبّ والقادرة على العطاء، أن تكون الإطار الحنون العظيم الذي يلمّ حياته المترامية الأطراف، التي تضج بإبداعه وفوضاه ونرجسيته وغربته.

وفي هذا الفصل من سيرته الجميلة، كنت أقرأ سيرة بغداد أيضاً، في تلك السنوات البعيدة. مدينة في بداية تفتحها على الجديد من كل شيء. يذهب مركزها إلى العمق من الحداثة بينما تتّسع ضواحيها لهجرة الريف بأغانيه وفقره وحلمه بحياة كريمة لم يشهد منها شيئاً حتى الآن. يحدثنا جبرا بلغته الجيّاشة بالحياة عن مقاهي بغداد. يذهب إليها العراقيون مع عوائلهم، ولم تكن فضاءات تلك المقاهي ملعباً لدخان الأراجيل ونكهة الشاي والدارسين فقط، بل كان للكلام نكهته الصاعدة من الأعماق، وكان الشعر والفنّ والرواية وأحاديث النقاد تملأ المكان.

طوال الفصل الدراسي وقاعة الدرس، حيث أدرّس أجزاءً منتقاةً من سيرة جبرا، لا تبخل على الداخل إليها بذلك المناخ البغدادي الذي لامس أرواح الطالبات، مشهد جبرا ولميعة وفي لحظة من جنون الشباب، يستقلان الربل، عربة تشبه الحنطور المصري يجرّها حصانان. من شرق بغداد إلى غربها. في ظهيرة آب اللهّاب. وهو يأكل التفاح العراقي من يديها القادمتين من الجنة. يحضر الأدب والأساطير، وبينما حواء الأولى أخرجت آدم من الجنة بتفاحة واحدة، تجيء حواء جبرا لتعيد آدم إلى جنته بعشرين تفاحة. كان الحوذي يصغي إلى هذا الهذيان

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

الجميل من عاشقين لم يشهد مثلهما من قبل. يتحدثان في الحب والشعر والتفاح والخروج من الجنة، يحدثها عن فقره، لم يذق طعم ملعقة من الفضة. لكن الله، تجيبه لميعة، قد وهبك بدلاً منها، لسانا من ذهب.. والحوذي يصغي إلى جنونهما بمتعة صافية بسيطة لا يدري سببها.

أحبّ جبرا إبراهيم جبرا بغداد وأحبّته. كتب فيها أعمال العمر من نقد ورواية وترجمة. ولم تكن، بالنسبة إليه، مجرد مدينة من المدن. وصلها شاباً في مقتبل شبابه وفتنته وطموحه، ولم يغادرها إلا بعد أن أعطاها أجمل ما أبدع وكتب وترجم. ووهبته أرقى ما يبلغه كاتب من كاريزما أدبية وإنسانية شاملة.

عاش شباب هذه المدينة، وشهد تفتّحها على الحياة والأمل، كما عاش انعطافها المرير إلى النهايات المهلكة. كانت بغداد دائماً لا تضع حاجزاً بينها وبين ضيوفها أو زائريها أو ساكنيها الجدد وكانت سخية في تعبيرها عن هذه السجية مع جبرا بشكل خاصّ. وفي المقابل شاركها جبرا كلّ ما مرّت به من تحوّلات وانتصارات وكوارث.

يتحدّث الشاعر والناقد الفني فاروق يوسف، جريدة العرب 8-3-2015، عن لحظة صدق هائلة لجبرا إبراهيم جبرا في دفاعه عن بغداد التي أحبّ.كان الخرس عن الحق سيد الموقف أمام سلطة منتشية بغطرستها ونفوذها الكاسح. كان يراد لبغداد في تلك اللحظة أن تتجرد من أكثر رموزها الشعرية فتنة وبهاءً: أعني" أبو نواس". لكن شغف جبرا ببغداد كان حاضراً بقوة، فقام مدافعاً: "عن الشاعر العباسي "أبو نواس" أمام الرئيس العراقي الراحل صدام حسين في ندوة عامة كان موضوعها تغيير اسم أحد شوارع بغداد الرئيسية من "أبو نواس" إلى "العباسي" بذريعة أصل الشاعر الفارسي."

لم يساوم جبرا إبراهيم جبرا على حبه لبغداد، ولم يصمت أو ينافق، كما فعل آخرون:

"أبو نوّاس بغداديٌّ مثلنا" هكذا قال جبرا هذه الجملة أمام حاكم كان يمتلك كل ما يجعله جديراً بطغيانٍ فريدٍ من نوعه، وفي جوٍّ مشحونٍ بالمزايدات والتوتر، وغير قابل لأيّ نوعٍ من سوء الفهم.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

يضيف فاروق يوسف:

" أتذكر جملته وكيف قالها بأناقة، في مرافعة تاريخية توقّع الكثيرون أن تكون نهايتها سيئة، في ظلّ حربٍ غلبت عليها الشعارات القومية. غير أن المفاجأة وقعت حين هزّ الرئيس رأسه موافقا". وكانت تلك العبارة التي قالها جبرا دفاعاً عن بغداد ورموزها، وفي ذلك السياق المشحون بالدجل والمزايدات "واحدة من أعظم لحظات عراقيّته الخالصة ".

صعوداً إلى النهايات:

كان أكثر ما يشدّني إلي جبرا صورة المثقف الشمولي والمبدع الحر، الذي راهن على كرامة الإنسان وصلابة روحه. لم يكن له قبيلة مرهوبة الجانب، أو حكومة يستند إلى جدارها المخيف، ولم يكن محسوبا على حزب سياسي يحميه. ومواصفات كهذه لا يمكن لها أن تقي جبرا من ذلك الجوّ السياسي المحتقن بالبغضاء والتطاحن المرير الذي عصف بالنظام الاجتماعي والسياسي والثقافي في العراق منذ بداية السبعينات.

لقد اختار جبرا إبراهيم جبرا، ومنذ شبابه الأول، الإبداع، وحرية الفكر، وخاض من أجلهما بحراً متلاطماً من الأهواء والانحيازات والتقلبات السياسية والأيدلوجية. كان عصياً على الانكسار، متميزاً دون مباهاة، ومتحضّرا دون ضعف أيضا.

ووسط ذلك الطوفان السياسي الهائج، الذي عمّ العراق، لم يكن لجبرا ما يعصمه من الغرق إلا موهبته الفذة، وإنسانيته الراقية. ورغم ذلك لم يسلم من الأذى، أو النقد الجارح الذي يهبط إلى مستوى الشتيمة أحياناً. وعن هذه الفترة المشحونة يتحدث الروائي عبد الرحمن منيف، بكثير من الأسى، في مقدمة أحد الكتب الاحتفائية بجبرا عن الروح القبلية التي عادت إلى العبث ببياض الروح العراقية وما كانت تتميز به من ألفة وتعاضد وانتماء إلى الثقافة الحقة.

وهكذا عاش جبرا إبراهيم جبرا مرحلة من التعتيم المخطط له بعناية، بحيث بدا وكأنه نتيجة طبيعية لتحولات اقتصادية وسياسية عامة، ولم يكن القصد منها جبرا تحديداً.. تم تأميم شركة نفط العراق في بداية السبعينات، وتأسيس شركة النفط الوطنية، وإيقاف مجلة (العاملون في

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

النفط) التي كانت مصدراً من مصادر التأثير في الوعي الجديد في الأدب العراقي، والتي كانت تصدر عن دائرة العلاقات العامة التي كان يشرف عليها جبرا في شركة نفط العراق قبل تأميمها.

ظلّ اسم جبرا إبراهيم جبرا يتمتّع بتلك الكاريزما المؤثرة في الحياة الأدبية العراقية، إلاّ أن محاولات إقصائه عن مسقط الضوء كانت واضحة. وفي فترة انتعش فيها البعض من أدعياء الثقافة وأنصاف الموهوبين، أراد الجهل أن يشفي غليله، وأن يزحزح ذلك الباب العملاق عن مكانه. فكانت العودة إلى الروح القبلية على أشدها والاعتصام بالتخلف وتدهور الذوق والروح القطرية المقيتة.

ويمكنني القول إن عودة الدكتور ناجي الحديثي من لندن، بعد أن كان مديراً للمركز الثقافي العراقي فيها، كانت بداية انتعاشٍ غير مسبوقٍ لحركة الترجمة في العراق. أسست "دار المأمون للترجمة"، وصدرت عنها مجلة "كلكامش" باللغة الإنجليزية. وكان لا بد من جبرا في مشروع كبير كهذا. وكانت ترجمات جبرا لتراجيديات شكسبير ذائعة الصيت من أول إصدارات دار المأمون وأكثرها أهمية. وهكذا عاد جبرا ليكون في الصميم من حركة الحياة الإبداعية والثقافية في العراق من جديد.

الكائن التراجيدي:

هل كان جبرا إبراهيم جبرا كائناً تراجيدياً؟ لا تبدو الإجابة على هذا السؤال يسيرة للوهلة الأولى. لقد عاش حياة عريضة حافلة بالفرح واللذة والمغامرة والنجاحات، كما يتضح من سيرته الذاتية ومن ثيمات الكثير من رواياته حتى يمكن لنا عده شخصية ديونيسية أكثر منها أبولونية. غير إن ثمة ترابطاً عميقاً بين اللذة والموت في أعماله الروائية، كما أن موضوعة الموت تتكرر في معظم أعماله، الموت لدى جبرا موت غرائبي أو أسطوري. ومثلما يرتبط الموت باللذة في أعماله فإن هذا الموت ملتقى للموت الشخصي بالموت العام، أي أن الجانب التراجيدي من شخصيته يلتحم ويفنى في الموت التراجيدي الفلسطيني الذي كان هاجس جبرا ونشيده الداخلي الحافل بالعذاب المقيم.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

والمدهش، حدّ الفجيعة، أن حياة جبرا ومجده الأدبي ونهاياته اشتبكت مع حياة بغداد ومجدها القاسي ونهاياتها الكارثية أيضاً. كانت حياته استثنائية بكل المعاني، عبّ فيها ما لذّ وطاب من ملذات العقل والجسد والمخيلة. وكما عبّ حدّ الثمل من نشوة النجاح وبريق الشهرة فإنه عانى حدّ الألم من انكسار الحلم وتدفق الظلام والذبول على بغداد وفلسطين وعلى جبرا نفسه، فكأنه يتنقل تنقلاً ذا دلالة من كاريزما النجومية إلى قهر التراجيديا في أواخر العمر.

وكأنّ ثمّة مزاجاً تراجيدياً يكمن في القرار البعيد من نفس جبرا، ولم يكن متاحاً كما يبدو للمارين على نتاجه الروائي والشعري والترجمي على عجل التوقف عند ذلك الجذر. وكأنه جذر بعيد الغور يرضع من طينة روحه التي عركتها غربته الشخصية وغربته الفلسطينية الكبرى. لقد اختار للترجمة تراجيديات شكسبير تحديداً، من بين نتاجه المسرحي الغزير كله، مع أن بعض هذه التراجيديات لا يرقى إلى بعض مسرحيات شكسبير الأخرى. ويبدو لي أنّ ذلك الجذر المأساوي الكامن في طبيعة جبرا وفي قرارة روحه رجّح لديه ترجمة التراجيديات الشكسبيرية دون سواها. وانسجاماً مع هذا الجذر المأساوي المتأصل في روحه لم يختر من كتاب "الغصن الذهبي" لجيمس فريزر، إلاّ الجزء الخاص بالإله "أدونيس أوتموز" دون سواه من فصول هذا الكتاب الضخم والمثير. ولا يخفى ما يحمل مقتل أدونيس من دلالة رمزية على الموت والخصب والتجدد.

ومن جانب آخر مازج جبرا إبراهيم جبرا، بحميمية واقتدار عاليين، بين تراجيديته الفلسطينية الطاحنة، وعراقيته الرافدينية المفعمة بحس أسطوري كارثي نادر. وقد تجلى الكثير من ذلك في أعماله الروائية. وقد استطاع جبرا كما يقول صديقه إلياس خوري، القدس العربي 20-4-2010، أن يصنع "هذا الامتزاج الفلسطيني العراقي الذي لا نرى له شبيها في التجربة الأدبية الفلسطينية المعاصرة" لقد وضع جبرا الحنينَ في سياقٍ عراقيّ قادر على أن يكون أحد مرايا بغداد الأدبية القليلة، بحيث صار الفلسطينيُّ جزءاً من السؤال العراقيّ.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

كان لا بد أن يرحل جبرا إبراهيم جبرا بعد أن بدأ حلمه العراقي والفلسطيني بالتصدع حجراً حجراً ورواية رواية. رحلت حبيبته البابلية، وكفّ الناس عن البحث عن وليد مسعود، وتوزّع الأبناء على المنافي، وما عاد هذا الليل الطويل صالحاً للسهر أو الحنين أو الكتابة، فليس هناك إلاّ للصراخ، وإلاّ اللحاق، في 1994 بمن أحبها وأحبته.

لكن الموت الأسطوري لجبرا إبراهيم جبرا لم يكتمل تماماً إلاّ في بداية نيسان. في مطلع هذا الشهر القاسي اكتملت فتنة جبرا بالأساطير، حيث خرج الليلك من الأرض الموات، كما يقول إليوت، وامتزجت الذكرى بالرغبة. وصل موت جبرا إلى منتهاه، حين تمّ تفجير بيته الجميل في شارع الأميرات. خمسون عاماً قضاها جبرا في خلق الجمال والدعوة إليه والاستمتاع به تحولت إلى ركام. كانت دماء الإله تموز وعبيره يتسربان من تحت الأنقاض. وكان ثمة محرقة بحق الجمال الصافي، سال الحبر والجمال النقي من الكتب المتفحمة، وتدافعت الخيول تخوض في الظل والضوء الأ لم وهي تسيل من لوحات الرسامين الكبار، واندلعت عاصفة من الرعد الأخرس والمطر الأسود وراح شظايا الآلات الموسيقية يتطاير في شارع الأميرات وفي ذاكرة العراقيين التي بدأ يأكلها الخوف مما سيجيء.

كان تقرير الشرطة، وهذه مفارقة موجعة أخرى، لا يشير إلى صاحب هذا البيت العامر بالجمال الذي تم تفجيره. فالشرطة لا تشمّ الجمال ولا تتذوقه. كان مجرد بيت لا أكثر، وكأنه لم يكن ملتقىً لنخب من مبدعي الجمال وعاشقيه طوال خمسين عاماً. وحتى في خضم ذلك هذا الموت الاستثنائي كانت بعض النفوس تنقاد إلى أكثر غرائزها تخلفاً وقبحاً. كان البعض يدوس على هشيم الموسيقى، وتأوهات الحبر العظيم، غير آبهٍ إلا بما هو طامع فيه، أعني بما قد يعثر عليه من مالٍ أو مصوغاتٍ ذهبية.

كان موت جبرا يتسع ويتكاثر ويتنامى، ليتمرّد على ضنك المكان، منتصراً على ربقة الحجر وصدأ الحديد، ومنتشراً في هواء بغداد، وموزعاً على قلوب مثقفيها ومبدعيها. وهكذا يظل جبرا إبراهيم جبرا أحد الخالدين الكبار في أدبنا الحديث، ويظل، في استعادةٍ لما قلته عنه ذات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881

يوم، واحداً من تلك الطيور النادرة التي لا تطيق التحديق في الأنهار المطمورة أو المنحدرات. فقد كان مثلها، تماماً، لا يعرف إلاّ الغيم والرعد وشجر الأعالي.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/881